الفصل الأول

الوجهة السَلَفية

بين وصل الماضى وصناعة الحاضر

العودة إلى الماضى ، والنظر فى الأصول ، واستعادة التاريخ ، على أن يكون ذلك أصل فى تأصيل مسيرة الحاضر ، وتنقية المناهج ، واستلهام العبر والدروس ، فيه دلالة على صحة التوجه ، وإيجابية المقصد ، وسلامة الوصل ، وكما يصب فى قوة الشهود للحاضر .

وعندما تكون العودة إلى الماضى ، بكاء على المفقود ، وانكباباً على الآثار ، وترديداً للأخبار ، ومحاكاة للرسوم ، وافتخاراً بالانتساب ، وكفى ، ففيه دلالة على الهروب من الحاضر ، والفشل فى المواجهة ، وعدم القدرة على الإبداع ، ومن ثَمَّ يكون وصل ذلك الماضى على حساب الحاضر والمستقبل .

وأن يحرص الدعاة اليوم على وصل حاضر الأمة بماضيها ، وأن يقفوا بها عند منطقة الخيرية فى القرون الإسلامية ، وأن يتنافسوا على رفع راية السَلَف ، وأن يتزاحموا على اللحاق بالقافلة ، ومن ثَمَّ الرغبة فى التجاوز بالأمة تلك التراكمات الثقيلة من التشوه فى الاعتقاد والفكر والسلوك ، إلى حيث الصفاء فى الاعتقاد والأصالة فى الفكر والقدوة فى السلوك .

أن يكون ذلك ديدن الحركات الإسلامية اليوم ، فإن ذلك من خير الطالع للأمة ، ومن إرادة الخير لها من الله ، ومن ثَمَّ فإنها علامة مضيئة فى مسيرة الإصلاح والعودة .

ولِمَ لا وحزام الأمان فى الاقتداء قد رُهِن بخير القرون ، والتى أشار إليها

الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم يجيئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » [(١)] .

وخيرية هذه المرحلة تأتى من كونها المرحلة التى حوت خير الأتباع والمقتدين ، والذين تزامن وجودهم مع نزول الدين فى عصر الصحابة ، ثم هؤلاء الذين أخذوا عنهم وفهموا عنهم من التابعين وتابعيهم ، وحيث نقاء النبع فى الأزمان وقبل مرحلة الاختلاط بثقافة العجم .

وكما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « مَن كان مُسْتنّاً فليستن بمن قد مات ، فإنّ الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكهم بدينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

ولقد وضحت أهمية تميز الاقتداء بهؤلاء ، عندما طرأت على الساحة مسألة آيات الصفات فى القرآن ، فمَن اهتدى بهَدْى من عاش فى القرون الأولى ، بتفسير هذه الآيات بدون أى تأويل أطلق عليه أنه أخذ برأى السَلَف ، وأنه من السلفيين (وذلك على عكس مَن جاء بعدهم فإنهم أوّلوا وقيل عن رأيهم بأنه رأى الخلف) . ومن هنا نشأت السَلَفية زمانياً فهى : « تطلق على المجموعة المتقدمة من أمة الإسلام ، فى فترة تاريخية تضم الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، فأصبح مذهب السَلَف عَلَماً على ما كان عليه هؤلاء ، ومَن تبعهم من الأئمة الأربعة ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن المبارك ، والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن ، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل ، دون مَن وُصِف بالبدعية » [(٢)] .

* *

---

(١) صحيح البخارى عن ابن مسعود .

(٢) كل ما جاء تحت هذا التقسيم مقتبس بتصرف من البحث القيم : « الاتجاه السَلَفى بين التأصيل والمواجهة » للدكتور راجح الكردى (ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ، البحرين ، ١٤٠٥ هـ) .

وإذا كانت إيجابية التوجه للماضى ، تعتمد على نوع التعامل مع هذا الماضى وحقيقة الانتساب لمحتواه ، كذلك فإن العودة إلى السَلَف شعار يحتاج إلى تحقيق للوقوف على إيجابية التوجه أو عدمه ، ومن ثَمَّ حقيقة الانتساب إلى مضمون السَلَفية ، وإلا فما المغزى من رفع هذا الشعار ؟

وهل معنى أن نعود إلى تجربة مضيئة فى ماضينا الإسلامى أن نجهل حاضرنا ونهجره ، أو نتعامل معه بغير مسمياته ، ونتحاور معه بلغة غير لغته ، أو نتعامل معه بمعطيات أخرى غير معطيات واقعة ، فنتجاهل علله وأمراضه ، فضلاً عن أن نواجه تلك العلل والأمراض بما لا يناسبها من أدوية وعلاجات ووسائل فعّالة .

أمامنا إذاً سَلَفيتان [1] :

* السَلَفية المنهجية :

« وهى سَلَفية استيعاب منهج السَلَف القائم على أصولية فهم القرون الخيِّرة وطريقة نهجهم ومنهج استدلالهم فى فهم الإسلام ومواجهة مستجدات الحياة ، فى التعامل مع الفكر الوافد الناشئ عن اتساع رقعة الإسلام والاحتكاك بالأعاجم » .

* سَلَفية مضمون ومحتوى :

« وهى اتباع لما أنتجه هذا المنهج السَلَفى الأصولى من فكر فى الاعتقاد والفقه ، فى زمن ماضى بكل من معطياته وقضاياه » .

وبالتالى فالسَلَفية المنهجية أوسع لأن المنهج الذى أنتج فكراً فى زمان يمكنه أن ينتج فكراً آخر وفى مواجهة ظروف جديدة مع المحافظة على الأصولية المنهجية .

---

(١) كل ما جاء تحت هذا التقسيم مقتبس بتصرف من البحث القيم : « الاتجاه السَلَفى بين التأصيل والمواجهة » للدكتور راجع الكردى (ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ، البحرين ، ١٤٠٥ هـ) .

فالفهم المنهجى للأصولية السَلَفية يفتح الباب لامتداد الإسلام بأصليه الرئيسين : الكتاب والسُنَّة ، وأصول الفهم لخير قرون هذه الأمة ، إلى قيام الساعة ، دون التحكم فى إسقاطات الفهم المستجدة المتأخرة بدعوى أنّ هذا سَلَفية شرعية وما دونه بدعية ضالة .

وهذا هو روح المعنى الذى أكده منهج القرآن والسُنَّة : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية [1] ، و « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسُنَّتى » .... الحديث .

فالسلفية المنهجية إذاً :

* ليست تكرار للقضايا ، كما أن تكرار القضايا التى أثارها السَلَف فى عصر ما ، لا يعطى لأصحابه صحة الادعاء بأنهم سَلَفيون وإلا فأين المعاصرة من خلال تلك السَلَفية ؟ فضلاً عن انتفاء التقليد عند السَلَف . ومن السَلَفيين السابقين أمثال الإمام ابن تيمية وابن عبد الوهاب - رحمهم الله تعالى - مَن نفوا عن أنفسهم أنهم مقلدون برغم احترامهم للإمام أحمد بن حنبل وموافقتهم لجُلِّ آرائه .

* وهى ليست كذلك محدودة بفهم الأفراد والهيئات ، والجماعات والتنظيمات مهما كانت أهميتها وعلا شأنها قديماً وحديثاً ، وإنما دين الله تعالى وكتابه الكريم وسُنَّة رسوله ﷺ هو المرجع لكل مسلم ، وليست لطبقة معيَّنة من العلماء أو مذهب محدود من الفقهاء ، شريطة انضباط المسلمين بقواعد المنهج السَلَفى للإسلام ، بفهمه الأصولى الصافى .

إذاً فمهوم الالتزام السَلَفى ، وفق السَلَفية المنهجية ، القائمة على أصولية الفهم والاستيعاب ، والقائمة على مفهوم عالَمية الدعوة وخلودها هى :

---

(١) النساء : ٨٣

فهم النصوص من القرآن والسُنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، بلغة عربية مبينة دون الدخول إليهما بقوالب فكرية سابقة ، قائمة على فكر دخيل ، أو أعجمية فى اللسان ، وأخطر منها أعجمية فى القلوب ، التى إن فهمت لغة القرآن والسُنَّة عاملتها بظاهرية سطحية .

معنى ذلك أننا إذا حافظنا على أصول المنهج فى استنباطنا للمعانى من الكتاب والسُنَّة فى مسألة معاصرة ، ثم خرج أحدنا بفهم أو رأى وخالفه فيه آخر مع حرصه على الأصول نفسها مع تباين الأفهام دون تحريف ولا تأويل فاسد ، فلا يبرر ذلك أن يدَّعى أحدنا السَلَفية ويرمى أخاه بالبدعية .

إذاً فالسَلَفية ، سَلَفية أصولية ، منهجية أصيلة الانتماء ، عصرية المواجهة ، تجاوزية الاختلاف [1] .

« وحيث إن السلفية خاضعة لمنهج ، وهو ما يسميه العلماء اليوم بقواعد تفسير النصوص ، وهو ما كان يسمى بعلم أصول الفقه ، وبدون هذه القواعد لا يستطيع إنسان أن يتبصر بمعنى نص من النصوص ، ولا أن يدرك متى يُلزمه النص بالثبات ، ومتى يدعوه إلى المرونة والتحرك والتطوير والتبديل . كما أن الذى وضع المنهج هم علماء المسلمين جميعاً ، ولم يكن من إنتاج فئة معيَّنة اسمهم « المذهب السَلَفى » وهذا المنهج فيه من القواعد ما هو متفق عليه فلا يجوز أن يحيد عنه إلا منحرف لا أقول بدعى بل هو ضال ، ولا أقول غير السَلَفى . وفيه من القواعد ما لم يتفق عليه مكتشفو هذا المنهج ، فمَن اتبع أحد الشقين فى هذه القاعدة ، فإن دائرة السَلَفية تشمله ، ومَن اتبع الشق الثانى فإنَّ دائرة السَلَفية تشمله أيضاً » [2] .

إذاً فأول إيجابية يجب أن نستوعبها ونحن فى توجهنا السَلَفى - وضابطنا الأول - أن يكون توجهاً منهجياً ، فلا يستغرقنا التوقف طويلاً عند المفهوم

---

(١) انتهى الاقتباس بالتصرف من المرجع السابق للدكتور راجح الكردى .

(٢) من تعقيب للدكتور سعيد رضمان على الدراسة السابقة بنفس الندوة .

زمانياً - إعجاباً واعتزازاً - أو لنكرر المعروض والمحتوى ، محاكاةً واستمتاعاً ، كذلك يجب أن يكون توجهاً مقيَّداً بأصول الكتاب والسُنَّة وقواعد الفهم والاستدلال على منهج السَلَف الصالح ، وبما تملك - هذه القواعد - من سعة تستوعب تفاعلات الزمان والمكان ، وتتجاوز اجتهاد الأفراد والجماعات الخاضعة لمعطيات واقعها وبيئتها المحدودة ، فضلاً عن أن يكون ذلك توجهاً مذهبياً ، يصنع الفُرقة ، ويدّعى احتكار الصواب فى أمور تسع الخلاف والاجتهاد ، ويستعيد معارك لسنا طرفاً فيها ، وجنبنا اللّه شهودها .

وإذا كنا فى حاجة لتقسيم يصنف المنتمين للإسلام من حيث موقفهم منه ، فيسعنا تقسيم واحد وخاصة فى هذا الجو من التشتت والضياع الذى يعيش فيه المسلمون ، يكفينا هذا التقسيم الأصل فـ « المسلمون كلهم فريقان : فريق ملتزم وفريق غير ملتزم ، والملتزم أيضاً قسمان : ملتزم معترف بتقصيره وخطئه فندعو اللّه له بالهداية ونشفق عليه ، ونقول : هذا إنسان غير ملتزم . ونسأل اللّه عَزَّ وجَلّ له الهداية .

أما غير الملتزم ، المتبجح بعدم الالتزام فهذا الإنسان نقول عنه : ضال ، تائه. أما الطرف الثانى وهم الملتزمون فكلهم سَلَفيون وكلهم آخذون من رسول اللّه ﷺ ويعذر مَن اتخذ لنفسه طريقاً لم يتفق فيه مع فئة من فئات المسلمين المجتهدين » [(١)] .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [(٢)] .

وقبل أن ننتقل إلى ضابط ثان لحركتنا أو لتوجهنا السَلَفى ، قد يكون من المفيد أن نتذاكر ونستحضر بعض معالم المنهج السَلَفى :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) فاطر : ٣٢

أولاً - صفاء التوحيد :

فهذه أولوية الأولويات ، حيث المحافظة على سلامة الأساس الأول للدين والعقيدة ، من أدران الشرك ونواقض التوحيد ، ومن شطحات المبتدعة ، كذلك من غبش التصور ، وعوارض الفكر الطارئ الناتج عن الاحتكاك بثقافات غير المسلمين ، ومع استحضار النهج القرآنى ومنهج السَلَف الصالح فى التعامل مع مسائل الاعتقاد ، ومن خلال التصحيح والممارسة على أرض الواقع ، لا باستحضار عوارض الماضى فى غير محلها .

ثانياً - الاستقامة وحسن الاتباع :

وقد خط السَلَف شرائط هذا المعلم :

١ - فلا تقليد ولكن اتباع بدليل « لا تقلدوا الرجال دينكم » ، وخاصة ما وجدت القدرة على ذلك ، فلا جمود ولا تعصب .

٢ - التعبد بما صح من الأدلة والحذر من المدسوس على السُنَّة ومن الضعيف منها والموضوع ، فضلاً عن بذل الجهد فى تنقيتها .

٣ - الحذر من الابتداع فى الدين ومتابعة الهوى ، مع الإلمام بطرائق البدعية وضوابط التبديع .

٤ - التزكية على منهج السلف الصالح تكون بتأسيس قواعد السلوك وإعمال القلوب على المنهج النبوى على الكتاب والسُنَّة ، وبعيداً عن تأويلات منحرفة الصوفية وشطحاتهم .

ثالثاً - الفاعلية الجهادية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وآثار هذا المعلم ، تجاوزت أفراد الصفحات والتدوين فى بطون الكتب ، فى إثبات أولوية هذه الفرائض والإفاضة فى شرح شرائطها وضوابطها . إلى أن يسجل لنا التاريخ ملاحم عملية فى المواجهة والتواجد والدفع والابتلاء والتفاعل مع مقدمة الصفوف ، والتصدر لمواجهة الفتن والتحديات الداخلية والخارجية ،

فيحفظ مظاهر عملية متعددة عملية فى إمضاء هذه الفرائض ، وإحيائها مع مدار الزمن .

فنجد إما ثباتاً أمام محنة ، (كالإمام أحمد بن حنبل وفتنة خَلْق القرآن) ، أو ثباتاً ومواجهة لضلال وانحراف الأمراء (ابن حنبل والنووى والعز بن عبد السلام) ، أو دفعاً وتحميساً لجهاد الرأى العام ضد الغزاة (العز بن عبد السلام وابن تيمية) ، وإما حرباً على الفِرق الضالة والمنحرفة والمذاهب الباطنية ، أو فاعلية فى مواجهة البدع وإقامة دولة الإسلام (ابن تيمية وابن عبد الوهاب) [1] .

ولاستكمال شروط التوجه السَلَفى ننتقل إلى الضابط الثانى ..

*

● من التجريد إلى التنزيل :

إن استيعابنا الصورة الصحيحة للإسلام الغائبة عن أذهان المسلمين ، ثم الوقوف على مدى مفارقتها لواقع المسلمين اليوم لم تعد هى الغاية الآن وحسب .

كذلك لم يعد بذل الجهد وإنفاق الوقت فى بيان وشرح وتوضيح عناصر الحق والخير وكل ما يُظهر الحقيقة الإسلامية فى أروع صورها ومع أوجهها المختلفة العقدية والاجتماعية والأخلاقية ... إلخ ، كافياً لكى ينتقل المسلمون للعمل بمقتضيات هذه الحقيقة ويدعوا ما هم عليه من فساد وانحراف .

كذلك لم تعد المشكلة فى استحضار كم من النصوص الصحيحة والكافية ، لنقد سلوك المسلمين ، ثم الحكم على مدى انحرافهم عن السوية ، وعن طريق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، بل أصبحت « معضلة المسلمين اليوم ، بل ومنذ أوائل هذا القرن ليست هى البحث عن صورة الحق التى ينبغى أن يطبق فى

(١) قدم الشيخ حسن البنا صياغة معاصرة لمعالم المنهج السَلَفى من خلال رسالة الأصول العشرين ، كما حاول إلى مدى بعيد أن يقدم من خلال مدرسته مشروع تطبيقى منهجى للمنهج ، وإن احتاجت بعض جوانب الرسالة للانفاذ والتفرغ على أرض الواقع الدعوى ، وبصورة تثمر على الممارسات الاعتقادية والتعبدية لمجتمعات المسلمين إلى المستوى التى أوصت بها الرسالة .

حياتهم ، لأن تلك الصورة تحفظها فى جوهرها النصوص ، وبعض من الجهد فى إجلاء الصورة (وقد أفاض الدعاة فى بذل هذا الجهد) ، ولكن مشكلتهم هى : كيف العبور من هذا الواقع إلى ذلك الحق ، ليصير المثال واقعاً ، ويحل الحق محل الباطل .. ليصير المثال واقعاً .

إن مشكلة الإنسان عموماً ليست هى معرفة الحق بقدر ما هى توطين النفس على انتهاجه ، فالإنسان كائن حى وهو أكثر الكائنات الحية تعقيداً ، وبذلك يكون له تفاعل معقد مع العناصر الواقعية للبيئة التى يعيش فيها ، وتمتد جذوره فى تلك البيئة وتتمكن روابطه فيها بحيث يصبح انتقاله من وضعيته الواقعية فيها - إذا كان على باطل - إلى وضعية صحيحة أمراً عصيباً يستلزم جهداً عظيماً ، هو ذلك الجهد الذى أنفقه الرسول ﷺ - وهو المؤيَّد بالوحى - طيلة ثلاثة وعشرين عاماً ليقطع بالناس هوة ما بين الواقع الجاهلى والحق الإسلامى » [(١)] .

وعندما اختزلت هذه الهوة ما بين الصوة المثالية للتطبيق الإسلامى والواقع الذى عليه المسلم المعاصر ، عن طريق الرغبة الشديدة من الشباب فى استيعاب هذا التطبيق جملة واحدة ، وبالعزم على هجرة واقعهم الفاسد ومغادرته إلى غير جعة . أدّى ذلك إلى أن يقول : « نشأ عن هذه العزيمة على الانتقال من الواقع إلى الحق عداء شديد لهذا الواقع وتنكب عنه ، ورفض جملى له ، وتمخض كل ذلك عن منهجية فى التغيير تقوم على إلغاء الواقع الفاسد ، ورفضه جملة ، وقطع أى صلة حوارية معه ، للتأدى من ذلك مباشرة إلى حياة تقوم على الحقيقة الإسلامية المثلى ، وتراوحت الأنظار فى ذلك بين التطرف فى الرفض والإلغاء وبين الاعتدال فيهما بما أسفر عن نزعات مترددة بين الحكم على هذا الواقع بالكفر ، وبين الحكم عليه بالخطأ الذى لم يبلغ الكفر ، كما أسفر هذا الرفض

---

(١) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية : د . عبد المجيد النجار (من أبحاث مؤتمر الندوة العالمية للشباب ، رجب ١٤٠٢ هـ) .

للواقع عن نشوء مظاهر جمة للتوتر النفسى ، والاضطراب الداخلى ، والخلل فى التوازن للقوام العقلى والنفسى »[1] .

هذا مع أن الإرشادات القرآنية فى منهجية الصراع مع الواقع ، والتربية النبوية التى مثلت الوجه التطبيقى لتلك الإرشادات ، لم تسلك الطريق إلى سيادة الحق بإلغاء الواقع الجاهلى القائم على أساس الباطل ، وحذفه بصفة جملية لتنزيل المثال الإسلامى منزلته ، بل كان بالانطلاق من هذا الواقع إبقاءً على ما تبقى فيه من قيم الخير ، ورفعاً لما فيه من الفساد رفعاً تدريجياً لتحل محله بالتدريج أيضاً صورة الحق فى السلوك ، مراعاة لطبيعة النفس ومشقة الانقلاب الفورى .

وكذلك بدأ الطريق فى مجال العقيدة بتوجيه القرآن بالتأمل فى الواقع المحسوس واستنباط حكمة الصانع الحكيم العليم : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

ولم ينطلق من خلال فكر تجريدى متعال عن الأحداث الواقعية ، كما آل فى عصور الانحطاط .

واليوم تعيش الدعوة الإسلامية فى مسيرتها المعاصرة ، وتوجهها السَلَفى أنماطاً من الخلل فى واقعية الطرح الإسلامى وتناقضه مع المظاهر الواقعية للفكر الإسلامى فى عهوده الأولى .

فمن أين بدأ هذا الخلل ، وما هى أعراضه ، وما شواهده من تجربتنا المعاصرة ؟؟؟

يتابع الدكتور عبد المجيد النجار تطور ذلك الخلل ويرى أنه بدأ مع الفتنة الكبرى والتى بلغت ذروتها فى حرب صِفِّين حيث يرى أنه :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) العنكبوت : ٢٠ .

١ - « قد نشأت حينئذ نزعة الخوارج رافضة لواقع الحياة الإسلامية رفضاً مطلقاً ، لعنت علياً وشيعته ، ولعنت معاوية وشيعته ، ولعنت كل مَن لا يرى رؤيتها ويذهب مذهبها »[١] ثم كانت « هذه النزعة الخارجية وخاصة فى صورها المتطرفة إنما هى مظهر لقصور فكرى منهجى تمثل فى ذلك الإلغاء البات لواقع المسلمين الذى ظهرت فيه بوادر الفساد ، والعمل على رفعه جملة ، وتنزيل الحق المثالى منزلته ، دون تأمل فيه وبحث فى أسبابه ، كما كان رسول الله ﷺ »[٢] .

٢ - وبمرور الأيام ، ومع بداية انحراف الفكر العقدى والفلسفى نحو المنهج اليونانى الذى يقوم على التجريد ويغفل الواقع الجارى ، حيث « توطد هذا الانحراف فى القرن الثالث والرابع والخامس على أيدى مَن عُرفوا بالفلاسفة حينما أفتى حُجَّة الإسلام الغزالى بأن مَن لم يحط بمقدمات المنطق الصورى اليونانى فلا ثقة بعلومه أصلاً ، فأصبح منذ ذلك الحين هذا المنهج التجريدى هو المنهج الغالب رغم حملات المقاومة التى نشأت ضده مثلما فعله ابن الصلاح وابن تيمية والسيوطى . وقد كان من أهم نتائج هذا المنهج أن أصبح الفكر العقدى يتخذ منطلقاته فى البحث من الصورة الفكرية المجردة ، لا من الأحداث التى يجرى بها واقع المجتمع كما هو الشأن فى العهد الأول ، وأصبح هذا الفكر حينئذ عاجزاً عن معالجة ما يطرأ من صور الانحراف العقدى فى واقع المسلمين لتجاهله لهذا الواقع وأسبابه ، وسقوطه فى الجدل النظرى ، وتعامله مع الصورة المجردة »[٣] .

٣ - ومع مظهر آخر ، حين تطور الفكر الصوفى إلى حالات الشطط ، « فإننا نجد التصوف المغالى يقوم على الإعراض عن عالَم الواقع .... ، فهو ضرب من ضروب الرفض الجملى للواقع ، والهروب إلى صورة مثالية للحياة بعيدة عنه ، وهو بالتالى قصور عن مكافحة مظاهر الباطل التى تطرأ فى الحياة

---

(١) ، (٢) ، (٣) دور الفكر : مرجع سابق .

الإسلامية ....، وقد أدى ذلك فيما أدى إلى تعطيل عوامل الفعالية فى الحياة الاجتماعية ، فتراخت إرادة الإصلاح وفق الحقيقة الإسلامية ، وآل المجتمع الإسلامى إلى التنصل شيئاً فشيئاً من البُعد الاجتماعى الذى رسمته التعاليم الإسلامية » (١) .

٤ - ثم يتابع الدكتور النجار ، كيف كان نصيب الفكر الشرعى من هذا الخلل فيقول : « أما الفكر الشرعى فقد ضرب فيه الخلل بجذوره أيضاً ، وذلك حينما بدأ هذا الفكر ينحدر إلى الجمود ، ويتقيد بالمذهبية الضيقة ....، فإن الفكر الشرعى أصبح بعد القرن السادس ينحو إلى الثبات فى صوره ومقولاته ، وفقد صلة الحوار بينه وبين صور الحياة ونوازلها الواقعية ، المستجدة على الدوام ، فلم يعد يصنع لتلك الصور المستجدة حلولاً من الأحكام الشرعية تأخذ بعين الاعتبار عناصر جدتها وملابسات تشخصها كما كان فحول الأئمة يفعلون ، وإنما اكتفى بإلباس صور الحياة الجديدة صور الأحكام القديمة فقيّدت بذلك حركة الحياة بقيود من الفكر الشرعى الجاهز ، وأدى ذلك إلى نتيجتين متعاقبتين : قصور عن الحركة الحضارية ، وتوقف عن الإبداع » (٢) .

وهكذا تحوّل الفكر الإسلامى مع تعدد مظاهر الخلل فى واقعيته إلى أن « أصبح غير قادر على أن يوفق بين مراتب النصوص التى تشمل على صورة الحق الإسلامى ، وبين مراتب واقع الحياة الإسلامية المتغيرة ، فيصوغ من تلك النصوص صوراً من الحياة تدمغ صور الباطل الذى ينشأ فى حركة الحياة الإسلامية فتتسق تلك الحياة سوية مندفعة مستمرة كما كان شأنها فى العقود الأولى » (٣) .

ونحن فى سيرنا المعاصر ومع اصطباغ مسيرتنا بوجهتها السَلَفية ، نكاد نلمس هذا الخلل من خلال واقعيتنا التغييرية ، فلا نجد صعوبة فى اكتشاف الجنوح نحو التجريد أو التنظير فضلاً عن المثالية فى تصورنا الإصلاحى .

وإذا كان الخوارج لم يستوعبوا النقلة الكيفية التى أصابت المجتمع الإسلامى - ما بعد الفتنة الكبرى - وحاولوا بتر هذا التحول كلية وإسقاطه ؛ فإن بيننا

---

(١) ، (٢) ، (٣) دور الفكر : المرجع السابق .

اليوم مَن لم يستوعب حجم النقلة التى آل إليها المجتمع الإسلامى المعاصر ، وما زال يعلق بذهن الكثيرين تلك الصورة الراقية للمجتمع الإسلامى المستقر ، ويحاسبون المعاصرون على أساسها وبدون تقديم أو تأخير ، وهذه الكثرة لا تنفك تتعامل مع معطيات المجتمع الملتزم ابتداء ، ولا ترى فى تشخيصها ، ولا يتعاظم فى حسها وتصورها فيما اعترى المجتمع إلا ما يمكن حصره تحت آفات الالتزام ، وما يصطلح عليه من سلبيات الاتباع ، ولذلك فإنها وإن أحسنت معركتها فى ميدان الملتزمين المحدودين ، فلا شك أنها قد افتقدت لغة الحوار ابتداء مع أغلبية المجتمع . ومع الشرائح المتعثرة فى هويتها والمترددة فى التزامها . وخاصة « أن حجم المشكلة التى تواجهها السَلَفية المعاصرة كبير ، ومشاكلها معقدة . والذى تهدف إليه السَلَفية اليوم - كحركة تجديد - أكبر وأضخم مما واجهته السَلَفيات السابقة والتى كانت تعيش فى ظل أوضاع إسلامية عامة ، يعترف عامة الناس بالإسلام ويعيشون أوضاعاً وقيماً وحكماً وأنظمة وفى أوضاع سياسية أوضح ما فيها أنها دولة الإسلام به تؤمن وتحكم ، ولا يمنعها ضعف فى فترة ، أو فساد فى ناحية من أن تجند الجيوش وتعقد الرايات ، لنشر دعوة الإسلام ، والجهاد فى سبيل الله ، وعلى الأقل الدفاع عن بيضة الإسلام وأرضهم وأعراضهم . بينما ضاعت اليوم ، وفى زماننا هذا إسلامية الراية ، وإسلامية النظم ، وإسلامية الأوضاع ، ضياعاً جعل التفكير بأن يكون الإسلام بكتابه الكريم وسُنَّة رسوله الأمين ﷺ أساس الحكم والتوجيه وشعار المعركة ، جريمة وخيانة فى أكثر دول العالَم الإسلامى ، تحاكم عليه قوانين تلك البلاد بالإعدام بتهمة تغيير شكل النظام » (١) .

كذلك يُلاحَظ فى توجهنا المعاصر هذا الميل للتجريد فى عرض الفكر العقدى وقضايا التوحيد ، ومن حيث إثارة المسائل التى أثيرت فى أزمان سابقة ، وبدون أن توجد نفس المؤثرات لإثارتها ، فضلاً عن إشغال الناس بها فى زماننا بلا مبرر - يعتبر مخالفاً لمنهج السَلَف الذى كان يرفض الكلام فيما لا طائل من

---

(١) الاتجاه السلفى - مرجع سابق .

ورائه ، فضلاً عن القصور فى مواجهة ما طرأ من انحرافات عقدية معاصرة .

ومن الضرورى هنا أن ننوّه إلى أننا مع مَن يرون إفراد العناية الخاصة والأولوية للبناء العقيدى ، وتصفية نواقض التوحيد فى الأمة إنطلاقاً من أولوية تغيير ما بداخل ذات الأمة ، وعلى أن يكون من خلال منهج دعوى لا تجريدى ، يستحضر المواقع جميعاً وجميع جوانب الانحراف التى ألّمت بها الأمة .

وأخيراً .. فإن قدر ما يصيب الفكر الشرعى - فى توجهنا السَلَفى - من نصيب فى ذلك القصور ، ومن حيث تلبسه بآفة الأحكام الجاهزة ومحدودية القدرة على تنزيل النصوص على واقعنا - بمعطياته الخاصة - ثم مواجهة المشكلات وطرح الحلول فضلاً عن الوسائل ، قد لا يخفى على أحد منا .

والآن ننتقل إلى الضابط الثالث ..

*

● من السَلَفية القضائية إلى الإنقاذية :

لقد كان من رواسب الاستغراق فى سَلَفية المحتوى والتقليد ، والوقوف طويلاً على آثار وقضايا مراحل سابقه ، وجود مؤثرين هامين على مظاهر الممارسة المعاصرة :

١ - انتهاج لغة قضائية مع المجتمع ، ذات لهجة إنكارية وانتقادية شديدين ، ومن موروثات تلك اللهجة التى كانت سائدة فى أزمان سابقة ، وإن اختلفت المعطيات كما أسلفنا ، حيث كانت سابقاً إفراز لمعركة التنافس بين المذاهب ، التى كانت تظلهم جميعاً مظلة الإسلام . أما الآن ، فخطورة سيطرة الموقف القضائى على الخطاب السلفى والاكتفاء بتوزيع الأحكام يمنة ويسرة - وسواء أكان من منطق الإعذار والبراءة أو تحت أى مبرر آخر - أنه ألغى المهمة الرسالية لدى أصحاب الحق ، ومما زاد الهوة بينهم وبين المجتمع من ناحية ، وبين المجتمع وبين الإقدام على الحق من ناحية أخرى . أنه ليس من الصواب عدم إدراك ذلك الاختلاف بين حوار الأمس وحوار اليوم ، وبين معركة يتنافس أطرافها على

ادعاء الصواب والحق ، وبين أخرى ، أطرافها المجتمع ككل والحق ككل ، وقد أصبح المجتمع فى أمس الحاجة لمن يأخذ بيده ، لا مجرد أن ينكر عليه .

يقول الدكتور عبد الحميد سليمان : « من الخطأ الذى يقفه بعض الدعاة هو تصرفهم من منطق قانونى قضائى بحت تجاه الناس والمجتمعات ، فهم لا علاقة لهم حقيقة بحياة الناس ، ولا عون منهم للناس ، وكل دورهم هو إصدار الأحكام الدامغة ضدهم ، متناسين أن من أهم وظائف الدعوة هو العون والتوجيه الأبوى، الذى يأخذ بأيدى الناس إلى جادة الصواب والحق ، ويقيل عثرتهم ، خاصة عثرة صغارهم وشبابهم ، حتى يستقيم عودهم وتتشبع نفوسهم بصحيح العقيدة ، وكريم الخصال ، ولعل من أسباب غلبة روح القضاء على روح التربية والتوجيه والعون فى ثقافتهم لأن جُلّ الثقافة الشرعية فى الوقت الحاضر هى ثقافة أحكام بحتة مع غياب التخصصات والممارسات والثقافة الفنية الأوسع على ما كان السَلَف » (١) .

٢ - الموقف من مفهوم التعليم والتعلم ، فقد أصبح لدى جمهرة كثيرة من شباب الصحوة اليوم قناعة بأن نهاية الطلب ، وغاية الأرب ، هى اكتساب العلم الشرعى ، وربما ينتهى سلم الأمانى ، ومراتب الواجبات ، باكتساب الفرد لقب « طالب علم » ، لا طالب عمل ، ولتتحول طاقات من الشباب الملتزم إلى بطالة مقنعة ، فى ساحة التغيير ، فضلاً عن عوامل أخرى تتعلق بجدولة موضوعات التعلم وحاجات المتعلمين ، والعائد من هذه الحصيلة على الفرد والمجتمع وحجم الاستفادة الشعبية من هذه الجدولة التعليمية .

إن الخطورة التى ننوه إليها ليست فى مدى أهمية التعلم من حيث المبدأ - معاذ الله - ولكن فى تحول فضيلة التعلم من وسيلة إلى غاية ، فضلاً عن أن يتلقص الدور الاجتماعى لأهل العلم والعلماء ، وتتحول مجالس العلم - فى هذا الوقت الحرج فى تاريخ أمتنا - إلى شئ من الإمتاع والمؤآنسه والاستغراق والغيبة .

---

(١) تجديد الدعوة : د . عبد الحميد سليمان ، ضمن أبحاث مؤتمر الندوة العلمية للشباب ، رجب ١٤٠٢ هـ .

أمر آخر فى غاية الأهمية ، هو مدى شيوع وتشبيع هذا المفهوم المشوّه لفضيلة العلم والتعلم ، على حساب حاجية الدعوة والدعاة فى عصرنا ، إلى درجة قد تؤدى إلى اتساع تلك الفجوة بين المجتمع اللاهى والحق . لانعدام ذلك البُعد العاطفى بين أهل الحق والمجتمع والتى تتأسس عليه المهمة الدعوية ، إن ممارسة التعلم بعيداً عن ميدان الدعوة والاهتمام بهمها تحرم رقة العاطفة وممارسة الشفقة على المجتمع وعلى المنحرفين منه ، فضلاً عن الحرمان من اكتساب آليات ومهارات الروح الدعوية ، وأولها الحكمة فى التعامل مع العباد فى أثناء تبليغهم ، وفى تلقى ونشر العلم ، فضلاً عن التعمق إلى أغوار النفس البشرية والوقوف على عوامل وأسباب ميلها إلى الباطل ، وصدودها عن قبول الحق .

وإذا كنا قد وصلنا إلى قناعة سابقة بأن المسلمين أكثر حاجة اليوم إلى مَن يأخذ بأيديهم ، ويعبر بهم ، دالاً إياهم على كيفية العبور إلى اكتساب الصواب ، وإلى أدب النقلة من العناصر الباطلة فى واقع حياتهم إلى الحقيقة الإسلامية الكاملة ، أكثر من مجرد تعريفهم بدلالات الحق واستحقاقه بالاتباع ، فقد تأكد ضرورة إحداث نقلة نوعية فى الخطاب السَلَفى المعاصر ، من حيث انتقاله من موقف الفكر المجرد إلى موقف المواجهة ، ومن موقف القاضى إلى موقف الداعية المنقذ ، ومن موقف الناقد السلبى إلى موقف المنتشل والموجه والمسدد ، ثم إلى المربى المخطط تسديداً ومقاربة .

إن الدور الحقيقى ، والمنوط بالحركات الإسلامية اليوم ، ومع أحقيتها فى الانطلاق والتوجه السَلَفى ، وبعد أن وضعت يدها على معالم هذا المنهج ، مكتسبة به روح التأصيل ومعالم الاتباع ، هو أن تكمل ما بدأت به من فعل إيجابى نحو حاضر أمتها ومستقبلها ، وذلك ببرمجة الكيف التى تعبر به الأمة ، وإلى سيادة الحق ، بواقعية واقتدار .

وعندما نعنى الواقعية ، فليس المقصود بذلك إقرار الواقع والخضوع له ، ولكن من خلال استيعابه ، ظروفاً وملابسات ، وعللاً وأمراضاً ، ودوافع ، ثم استنباط عوامل وطرق تغييره وإصلاحه .

* * *